حقيقة الإيمان

● **مفهوم الإيمان الذى نعنيه :**

مـا الإيمان الذى نعنيـه فى هذه الدراسـة ، ونحـاول تجليـة أثره فى النفس والحياة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تتضح إلا إذا عرفنا مـفـهـوم الإيمان ، ومتعلق الإيمان ، أما مفهوم الإيمان ومعناه ، فإنه ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن ، فما أكثر المنافقين الذين قالو آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

[البقرة : ٨-٩]

وليس هو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتيد أن يقوم بها المؤمن ، فما أكثر الدجالين الذين يتظاهرون بالصالحات ، وأعمال الخير ، وشعائر التعبد ، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والإخلاص لله **﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾** [النساء :١٤٢] ..

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان ، فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان ، ولم يؤمنوا : **﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً ﴾** (النمل:١٤) .. وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الإيمان بما علموه من بعد ما تبين لهم الحق **﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾**

[البقرة:١٤٦]

إن الإيمان فى حقيقته ليس مجرد عمل لسانى ولا عمل بدنى ، ولا عمل ذهنى .

إن الإيمان فى حقيقته عمل نفسى يبلغ أغوار النفس ، ويُحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان .

فلا بد من إدراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى عليه فى الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلَهى المعصوم .

ولا بد أن يبلغ هذا الإدراك العقلى حد الجزم الموقن ، واليقين الجازم ، الذى لا يُزلزله شك ولا شُبهة : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾ [الحجرات : ١٥] ..

ولا بد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبى ، وانقياد إرادى ، يتمثل فى الخضوع والطاعة لحكم مَن آمن به مع الرضا والتسليم : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ [النساء : ٦٥] .. ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٥١] .. ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ..

ولا بد أن يتبع تلك المعرفة ، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية ، تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة ، والالتزام بمبادئها الخُلُقية والسلوكية والجهاد فى سبيلها بالمال والنفس ، ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقاً** ﴾ [الأنفال : ٢-٤] ..

والقرآن الكريم يعرض دائماً الإيمان فى أخلاق حية ، وأعمال ناصعة ، يتميَّز بها المؤمنون ، من الكفرة والمنافقين : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١-٥] . .الآيات .

وقال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات : ١٥] . .

يقول شهيد الإسلام الأستاذ « سيد قطب » رحمه الله فى تفسير هذه الآية من « ظلال القرآن » :

« فالإيمان تصديق القلب بالله ورسوله ، التصديق الذى لا يرد عليه شك ولا ارتياب ، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذى لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور ، والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله ، فالقلب متى تذوَّق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لابد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب ، فى واقع الحياة ، فى دنيا الناس ، يريد أن يُوحِّد بين ما يستشعره فى باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يُحيط به فى ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة ، ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التى فى حسه ، والصورة الواقعية من حوله ، لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه كل لحظة ، ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتى من نفس المؤمن ، يريد به أن يُحقِّق الصورة النوضيئة التى فى قلبه ، ليراها ممثَّلة فى واقع الحياة والناس ، والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيمانى وواقعه العملى ، وكذلك عدم استطاعته التنازل عن تصوره الإيمانى الكامل الجميل المستقيم فى سبيل واقعه العملى الناقص الشائن المنحرف فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله . حتى تنتهى هذه الجاهلية إلى التصور الإيمانى والحياة الإيمانية »(١) .

(١) فى ظلال القرآن ص ٢٦ .

هذه العناصر والمقوِّمات التي ذكرتها هي التي تكوِّن «الإيمان الحق» وإن شئتَ قلتَ «العقيدة الحقة» وإذا فُقد بعض هذه العناصر فإن ما بقي منها لا يستحق أن يُسمى «إيماناً» أو «عقيدة».

يمكن أن تسمى «فكرة» أو «نظرية» أو «رأياً» أو أي عنوان من هذه العناوين، أما الإيمان الحق فهو الذي تُشرق شمسه على جوانب النفس كلها، فتنفذ إليها أشعتها حاملة الضوء والحرارة والحياة. أجل تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه وتحركه، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا اقتنع العقل. وتحرك القلب. واتجهت الإرادة، استجابت الجوارح، واندفع للعمل، استجابت الرعية للراعي المُطاع.

ويعجبني ما كتبه في هذا المقام الأستاذ أحمد أمين رحمه الله مُفرقا بين الرأي والعقيدة[1] قال «فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده، إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك، وتغلغل في أعماق قلبك».

ذو الرأي فيلسوف، يقول: «إني أرى صواباً ما قد يكون في الواقع باطلاً، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم، وقد تقوم الأدلة على عكسه غدا، وقد أكون مُخطئاً فيه وقد أكون مُصيباً».

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق، لا محالة، هي الحق اليوم، وهي الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل[2]، وسمت عن معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأي فاتر أو بارد، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأى

---

(١) في كتاب فيض الخاطر جـ ١.

(٢) هذا بعد الاقتناع والتصديق. أما قبل ذلك فالإسلام لا يرضى من المسلم إلا أن يكون اعتقاده قائماً على أساس الدليل والبرهان، ولا يعبأ بإيمان المقلد، وسنبين بعد في مزايا العقيدة الإسلامية أنها «عقيدة مبرهنة».

غيره خطأ يحتمل الصواب ، وذو العقيدة جار متحمس ، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته .

ذو الرأى سهل أن يتحول و يتحرر ، هو عند الدليل ، أو عند المصلحة تظهر فى شكل دليل ، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله ﷺ : « لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى، على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته » .

الرأى جثة هامدة ، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها ، والرأى كهف مُظلم لا يُنير حتى تُلقى عليه العقيدة من أشعتها، والرأى مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض ، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه . والرأى سديم يتكوَّن ، والعقيدة نجم يتألق .

الرأى يخلق المصاعب ، ويضع العقبات ، ويُصغى لأمانى الجسد ، ويُثير الشبهات ، ويبعث على التردد . والعقيدة تقتحم الأخطار ، وتُزلزل الجبال ، وتلفت وجه الدهر ، وتُغيِّر سير التاريخ ، وتنسف الشك والتردد ، وتبعث الحزم واليقين ، ولا تسمح إلا لمراد الروح » .

● **محتوى الإيمان الذى نعنيه :**

ولا يكفى أن نعرف حد الإيمان ومفهومه حتى نعرف محتواه ومتعلقه . فلابد أن نعرف أى إيمان نعنى فى دراستنا هذه؟

إن الناس قد ابتذلوا كلمة « الإيمان » فوضعوها فى غير موضعها ، فأصبحنا نقرأ عن إيمان « بالشيوعية » ، وإيمان « بالوجودية » ، وإيمان « بالقومية » وإيمان « بالوطن »، وإيمان « بالثورة »، وإيمان بغير ذلك مما ابتدع البشر لأنفسهم مما لم يأذن به الله .

وليقل الناس ما شاءوا ، فلن يضيرنا ذلك إذا عرفنا نحن الإيمان الذى نريد . إنه الإيمان الذى لا تدل هذه الكلمة على غيره عند إطلاقها ، الإيمان « الدينى » الذى صحب البشرية منذ طفولتها ، ولم يفارقها فى صباها وشبابها وكهولتها ، ولم يزل سلطانه مهيمناً على الكثير من تصرفاتها وأعمالها .

إنه الإيمان الذى يتجسد فى خاتمة العقائد السماوية ، عقيدة الإسلام ، كما بيَّنها القرآن الكريم ، وهَدى الرسول العظيم ، متمثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

هذه العقيدة هى التى تحل لغز الوجود ، وتُفسر للإنسان سر الحياة والموت وتُجيب عن أسئلته الخالدة : من أين؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام ، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام ، إنها العقيدة المصفاة ، التى بُعث بها أنبياء الله جميعاً ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ، انها الحقائق الخالدة التى لا تتطور ولا تتغير ، عن الله وعن صلته بهذا العالَم .. ما يبصره منه وما لا يبصره ، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها . إنها الحقائق التى علَّمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح فى قومه ، ودعا إليها هود وصالح ، عاداً وثمود ، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله ، وأكدها موسى فى توراته ، وداود فى زبوره ، وعيسى فى إنجيله .

كل ما فعله الإسلام ، وهو أنه نقَّى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصفاها من الأجسام الغريبة ، التى أدخلتها العصور عليها ، فكدرت صفاءها وأفسدت توحيدها بالتثليث والشفاعات ، واتخاذ الأرباب من دون الله ، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم ، ونسبة ما فى البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علواً كبيراً ، وشوَّهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان ، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم ، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضاً جديداً ، يليق بالرسالة التى اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلَهية ، وأن تكون غاية لكل البشر ، إلى قيام الساعة .

جاءت عقيدة الإسلام فنَقَّت فكرة التوحيد وكمال الأُلوهية مما شابها على مر العصور ، ونَقَّت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور .

ونَقَّت فكرة الجزاء الأُخروى مما دخل عليها من أوهام الجاهلين ، وتحريف المغالين ، وانتحال المبطلين ، ودجل المشعوذين .

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هى : الإيمان بالله ، والإيمان بالنبوَّات ، والإيمان بالآخرة .

ويمكن أن نُجمْل فى الإيمان : الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده، والإيمان بوحدانيته، والإيمان بكماله .

● **وجود الله تعالى :**

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عُليا تحكمه وتُديره وتُشرف عليه ، سماها أحدهم « العلة الأولى » وسماها غيره « العقل الأول » وسماها ثالث « المحرك الأول » وسماها القرآن العربى المبين ، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال : « الله » .

هذه القوة العُليا ، وبعبارة أُخرى : هذا الإلهُ العظيم ، ليس فى استطاعة العقل البشرى إدراك كنهه ، ولا معرفة حقيقته ، كيف وقد عجز عن معرفة كُنه ذاته وعن كُنه النفس وحقيقة الحياة وكثير من حقائق الكون المادية من كهربية ومغناطيسية وغيرها ؟ وما عرف إلا آثارها ، فكيف يطمع فى معرفة ذات الله العلى الكبير ؟ ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ** ﴾

[الأنعام ١٠٢-١٠٣] ..

هذا الإلهُ ليس إلَهُ فصيلة محدودة ، ولا إلَهُ شعب خاص ، ولا إلَهُ إقليم معين. وإنما هو ﴿ **رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة :٢] .. ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الكهف : ١٤] .. ﴿ **رَبُّ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾ [الشعراء : ٢٨] .. ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ..

ولنستمع إلى ما قصَّه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون ليتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى : ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ**

وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٣-٢٨] ..

وقد دلَّل القرآن على وجود الله بطرق عديدة :

١ - فَيلفت العقول والأذهان إلى ما فى الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعاً حكيماً . وهو قانون بدهى عند العقل الذى يؤمن بمبدأ «السببية» إيماناً طبيعياً لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤]

هذا الخلق لابد له من خالق ، وهذا النظام لابد له من مُنظِّم : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [الطور:٣٥- ٣٦] . ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٤٩-٥٠] ..

٢ - ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التى بها يدرك المرء إدراكاً مباشراً أن له ربا وإلهاً قوياً عظيماً يكلؤه ويرعاه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] ..

وإذا اختفت هذه الفطرة فى ساعات الرخاء واللهو فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء ، وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب ، وينكشف المعدن الأصيل للنفس البشرية ، تعود إلى ربها داعية متضرعة : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا

رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] .

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومُدبِّره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلناً «الله» : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦١] .. ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

[يونس : ٣١-٣٢]

ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنسانى على أن الإيمان بالله وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه ، وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والبوار ، ففى نوح يقول : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٤] .

وفى هود يقول : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٧٢] وفى صالح وقومه ثمود يقول: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٢-٥٣] ..

وفى رسل الله جميعاً يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] ..

● **إنما الله إلَهٌ واحد :**

وهو تعالى إلَهٌ واحد ليس له شريك ، ولا له مثيل فى ذاته أو صفاته أو أفعاله : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ [سورة الإخلاص] . . ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة : ١٦٣] . .

وكل ما فى الكون من إبداع ونظام يدل على أن مُبدعه ومُدبِّره واحد ، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يُدبِّر ، وأكثر من يد تُنظِّم ، لاختل نظامه ، واضطربت سُننه ، وصدق الله : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . . ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٩١] . .

هو تعالى واحد فى ربوبيته ، فهو ربُّ السمَّاوات الأرض ومَن فيهن وما فيهن ، خلق كل شيء فقدَّره تقديراً ، وأعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى ، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يَدعِّى أنه الخالق أو الرازق أو المدبِّر لذرَّة فى السماء أو فى الأرض ﴿ **وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ** ﴾ [الشعراء : ٢١١] . .

وهو تعالى واحد فى أُلوهيته ، فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه . فلا خشية إلا منه ، ولا ذُلَّ إلا إليه ، ولا طمع إلا فى رحمته ، ولا اعتماد إلا عليه ، ولا انقياد إلا لحكمه . والبشر جميعاً ـ سواء أكانوا أنبياء وصدِّيقين أم ملوكاً وسلاطين ـ عباد الله ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فمن ألَهَ واحدا منهم ، أو خشع له وحنى رأسه ، فقد جاوز به قدره ، ونزل بقدر نفسه .

ومن ثَمّ كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة وإلى أهل الكتاب خاصة :

﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤] ..

ومحمد نبى الإسلام لم يقل القرآن عنه إلا أنه : ﴿ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .. ولم يقل هو عن نفسه إلا أنه «عبد الله ورسوله»(١) .

والأنبياء جميعا ليسوا - فى نظر القرآن - إلا بشراً مثلنا ، اصطفاهم الله لحمل رسالته إلى خلقه ، ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده ، ولهذا كان النداء الأول فى رسالة كل واحد منهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾(٢) وفى هذا يقول القرآن : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ..

ومن الضلال المبين أن يزعم زاعم ، أو يفترى مفترٍ على هؤلاء الأنبياء : أن أحداً منهم دعا الناس إلى تأليهه أو تقديس شخصه .. ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ٧٩ - ٨٠]

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل فى هذه الكلمة العظيمة التى عُرفت لدى المسلمين بكلمة «التوحيد» وكلمة «الإخلاص» وكلمة «التقوى» وهى «لا إِلَهَ إِلاَّ الله» .

---

(١) فى الصحيح : «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ولكن قولوا: عبد الله ورسوله» .

(٢) انظر الأعراف : ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ ، وانظر هود : ٥٠، ٦١، ٨٤ وغيرها .

كانت « لا إِلَهَ إِلاَّ الله » إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية ، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله : سواء أكانت شجراً أم حجراً أم بشراً .

وكانت « لا إِلَهَ إِلاَّ الله » نداءً عالَمياً لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل مَن خَلَقَ الله وما خَلَقَ الله .

وكانت « لا إِلَهَ إِلاَّ الله » عنوان منهج جديد ، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف ، إنه منهج الله الذى لا تعنوا الوجوه إلا له ، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه .

وكانت « لا إِلَهَ إِلاَّ الله » إيذاناً بمولد مجتمع جديد ، يغاير مجتمعات الجاهلية، مجتمع متميز بعقيدته ، متميز بنظامه ، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية ، لأنه ينتمى إلى الله وحده ، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه .

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبابرتها ما تنطوى عليه دعوة « لا إِلَهَ إِلاَّ الله » من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم وطغيانهم وإعانة المستضعَفين عليهم، فلم يألو جهداً فى حربها ، وقعدوا بكل صراط يُوعِدون ويَصدُّون عن سبيل الله من آمَنَ ويبغونها عِوجاً .

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أُناساً منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة فى الأرض أو أنصاف آلهة ، لهم يخضع الناس ويخشعون ، ولهم يركعون ويسجدون ، ولهم ينقادون ويسلمون .

لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إِلَهاً ، ولا نصف إِلَه ، أو ثلث إِلَه ، أو ابن إِلَه ، أو محلاً حلَّ فيه الإِلَه !

ولم يعد بَشَرٌ يسجد لبشر أو ينحنى لبشر أو يُقبِّل الأرض بين يدى بشر وهذا أصل الأُخوة الإنسانية الحقة . وأصل الحرية الحقة ، وأصل الكرامة الحقة إذ لا أخوة بين عابد ومعبود ، ولا حرية لإنسان أمام إِلَه أو مُدَّعى أُلوهية ، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حَكَماً من دون الله.

قال أبو موسى الأشعرى : انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين وقد قال له عمرو وعمارة ـ وهما مندوبا مشركى قريش بمكة إلى النجاشى ـ إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك ، فقال جعفر بن أبى طالب : لا نسجد إلا لله !

فرغم أنهم مضطَهدون ومهاجرون ، وغرباء لاجئون ، وهم فى أرض هذا الملك وفى حوزته ، أبوا أن يفرطوا فى توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله ، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعاراً لكل مسلم : « لا نسجد إلاَّ لله » .

● **كمال الله تعالى :**

ولابد من الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة، منزه عن كل نقص ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:٣-٤] .. ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ** ﴾ [الشورى:١١]

دلَّ على ذلك : هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب ، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيِّرة ، وفصَّلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه .

فهو سبحانه العليم الذى لا يخفى عليه شىء : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[الأنعام:٥٩] ..

وهو العزيزُ الفعَّالُ لما يريد ، الذى لا يغلبه شىء ، ولا يقهر إرادته شىء : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران:٢٦].

وهو القدير الذى لا يُعجزه شىء . يُجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء، ويُحيى العظام وهى رميم ، ويُعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أهون عليه : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الملك:١] ..

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يترك شيئاً سُدى ، ولا يفعل فعلاً، أو يُشرِّع شرعاً إلا لحكَم ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها . وهذا ما شهد به الملائكة فى الملأ الأعلى : ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ** ﴾ [البقرة:٣٢] ..

وما شهد به أنبياء الله و أولياؤه ، وأولو الألباب من عباده : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ [آل عمران:١٩١] ..

وهو الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه ، ووسِعَتْ رحمته كل شيء ، كما وسِعَ علمه كل شيء ، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة : ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً** ﴾ [غافر:٧] .. وقال : ﴿ **عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [لأعراف:١٥٦] .. وقد بدأ سور القرآن بـ (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء فى قلوب عباده ، وإن تورَّطوا فى الذنوب والآثام : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر:٥٣]

الإلَه فى الإسلام ليس بمعزل عن هذا الكون وما فيه ومَن فيه كإلَه أرسطو الذى سمَّاه « المُحرِّك الأول » أو « العلَّة الأولى » ووصفه بصفات كلها « سلوب » لا فاعليه لها ولا تأثير ، ولا تصريف ولا تدبير ، فإن هذا الإلَه ـ كما صوَّرته الفلسفة الأرسطية ـ لا يعلم إلا ذاته ، ولا يدرى شيئاً عما يدور فى هذا الكون العريض .

إلَه أرسطو والفلسفة اليونانية لم يخلق هذا الكون من عدم ، بل العالَم عندهم أزلى غير مُحْدَث ولا مخلوق .

و إله أرسطو لا صله له بهذا العالَم ، ولا عناية له به ، ولا يُدبِّر أمراً فيه ، لأنه لا يعلم ما يجرى فيه مما يلج فى الأرض أو يخرج منها وما ينزل من السماء

أو يعرج فيها . كل ما يقوله أرسطو ومن تبعه عن الإله أنه ليس بجوهر و لا عَرَض وليس له بداية ولا نهاية ، وليس مُركَّباً ولا جزءا من مُركَّب وليس داخل العالَم ولا خارجه ، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، وهذه السلبيات لا تجعل الإله كائناً يُرجى ويُخشى ، و لا تربط الناس بربهم رباطاً محكماً يقوم على المراقبة والتقوى والثقة والتوكل والخشية والمحبة .

هذا الإله المعزول عن الكون ، الذى عرفه الفكر اليونانى وعنه انتقل إلى الفكر الغربى الحديث ـ لا يعرفه الإسلام ، وإنما يعرف إلهاً : ﴿ **خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى** ﴾ [طه : ٤ – ٨] .. ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِه إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

الإله فى الإسلام هو خالقُ كل شىء ، ورازقُ كل حى ، ومُدبِّرُ كل أمر ، أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، ووسع كل شىء رحمة ، خلق فسوَّى ، وقدَّر فهدى ، يَسمع ويَرى ، ويَعلمُ السر والنجوى : ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ** ﴾ [المجادلة : ٧] .

له الخَلْقُ والأمر ، وبيده ملكوت كل شىء ، يُولِج اللَّيلَ فى النهار ويُولِج النهار فى اللَّيل ، ويُخرجُ الحَىَّ من الميت ، ويُخرج الميِّتَ من الحىِّ ، ويرزقُ من يشاءُ بغير حساب .

---

(١) ملكاً وملكاً : الأولى بكسر الميم والثانية بضمها .

له فى ما السَّموات والأرض ملكاً ومُلكاً [1] . لا يملك أحد مثقال ذرَّة فى السمَّوات والأرض، وما لأحد فيهما من شرك، الشمس والقمر والنجوم مسخَّرات بأمره، والأرض وما عليها ممهدة بقدرته ، مسيرة بمشيئته ، وفق حكمته .

هو الذى يُرسل الرياحَ فتُثيرُ سحاباً فيبسطُه فى السماء كيف يشاء ثم يجعله كِسفاً فترى الودَق يخرج من خلاله ، وهو الذى سخَّر الفُلْك لتجرى فى البحر بأمره، ويمسك السماءَ أن تقع على الأ رضِ إلا بإذنه ، وهو الذى جعلَ الأرض ذَلولاً ليمشى الناس فى مناكبها ويأكلوا من رزقه .

كل مَن فى السَّموات والأرض خَلْقه وعباده ، الملائكة فى السَّموات ، والجن والإنس فى الأرض ، كلهم فى قبضة قُدرته ، وطوع مشيئته : الملائكة جنده المطيعون بفطرتهم ، ﴿ **لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنبياء:٢٧] ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم:٦] ..

والجن والإنس ـ وإن أعطاهم الحرية والاختيار ـ لا يخرجون عن مشيئته وسلطانه ، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولا نُشوراً ، ومن تمرَّد منهم على العبودية له اليوم فسوف يعترف بها غداً ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً** ﴾ [مريم:٩٣-٩٥]

هو ـ تعالى شأنه ـ مع عباده جميعاً بعلمه وإحاطته ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ [الحديد:٤] وهو مع المؤمنين خاصة بتأييده ومعونته : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل:١٢٨] ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنفال:١٩]

الكون كله ـ عاليه ودانيه ـ صامته وناطقه ، أحياؤه وجماداته كله خاضع لأمر الله ، منقاد لقانون الله ، شاهد بوحدانيته وعظمته ، ناطق بآيات علمه وحكمته ، دائم التسبيح بحمده ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ [الإسراء:٤٤] ..

إنَّ تسبيح الكون لله ، وسجوده لله ، حقيقة كبيرة ، عميت عنها أعين ، وصمت عنها آذان ، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم ، ويسمعون بآذان قلوبهم ، فإذا هم يرون الوجود كله محراباً ، والعوالم كلها ساجدة خاشعة ، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴾ [الرعد :١٥] ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ** ﴾ [الحج : ١٨] ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحديد : ١-٣].

* * *

● **الإيمان بالنبوَّات :**

والإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالَم ، وتكريمه للإنسان ، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولابد ، فما كان الله ليخلق الإنسان ، ويُسَخِّر له ما فى الكون جميعاً ، ثم يتركه يتخبط على غير هُدى ، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا ، وأن يُهيئ له زاده الروحى ، كما هيأ له زاده المادى ، وأن ينزل الوحى من السماء ليحيى به القلوب والعقول ، كما أنزل من السماء ماءً لتحيا به الأرض بعد موتها .

ما كان من الحكمة أن يُترك الإنسان لنفسه تتنازع الفرد قواه وملكاته المختلفة، وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة ، وإنما كانت الحكمة فى عكس هذا . كانت الحكمة فى إرسال رسله بالبينات ، ليهدوا الناس إلى الله ، ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد .

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولاً عنه يُبلِّغهم

بأمره ونهيه ، فيقول نوح : ﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ .. [الأعراف : ٦١-٦٣] ..

ويقول هود لقومه ما يقرب من هذه المقالة .

ويقول القرآن رداً على المشركين الجاحدين برسالة محمد ﷺ : ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [يونس : ٢]

والهداية بالوحى هى أعلى مراتب الهداية التى منحها الله للإنسان .

فهناك الهداية الفطرية الكونية ، وهى التى عَبَّر عنها أحد العلماء حين قيل له : متى عَقلْتَ ؟ قال منذ نزلتُ من بطن أمى ، جُعتُ فالتقمتُ الثدىَ ، وتألمتُ فبكيتُ !!

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان ، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات وهى التى عَبَّرَ عنها بالوحى فى شأن النحل ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴾ [النحل : ٦٨] بل هى منبثة فى أجزاء الكون كله : فى النبات الذى يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم ، وفى الكواكب التى يسير كل منها فى مداره الذى لا يتعداه ، وفق قانون لا يتخطاه ﴿ **لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس : ٤٠] فهى هداية عامة للمخلوقات علويها وسفليها ، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى لفرعون قال : ﴿ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ [طه : ٤٩-٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ [الأعلى : ١-٣] ..

والمرتبة الثانية للهداية مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم

والذوق، والباطنة كالجوع والعطش والفرح والحزن ، وهذه المرتبة أرقى من الأولى ، ففيها نوع من الانتباه ، وقدر من الإدراك ، وإن كانت لا تسلم من الخطأ ، كما نرى فى السراب الذى يحسبه الرائى ماءً ، وفى الظل الذى يظنه ساكناً وهو متحرك .

والمرتبة الثالثة : هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة ، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيراً ما يعتمد على الحس فى الحكم والاستنباط . وبذلك يتعرض للخطأ . كما يتعرض له فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج . والعقل فى عملياته العُليا من خصائص الإنسان ، التى تَفرَّد بها عن الحيوان

والمرتبة الرابعة : هى هداية الوحى ، وهى التى تصحح خطأ العقل ، وتنفى وهم الحواس ، وترسم الطريق إلى ما لا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده ، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول .

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣] .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد:٢٥] .. **﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾** [النساء:١٦٥] ..

والإيمان بالنبوة والرسل يتضمن فى حناياه معانى عديدة :

١- فمعناه الإيمان بحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة ، فحكمة الحكيم ورحمة الرحيم هما اللَّتان اقتضتا ألا يُترك الناس سُدى ، وألا يُعذبوا قبل البلاغ والتبشير والإنذار ، وألا يُتركوا للخلاف يأكلهم دون حكم يرجعون إليه : **﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾** [القيامة : ٣٦] ..**﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾** [الإسراء : ١٥] ..**﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]

٢- ومعناه الإيمان بوحدة الدين عند الله، وأن دين الله فى جميع الأماكن والأزمان واحد لا يتغير، وإن تغيرت المناهج والشرائع باختلاف الأعصار. ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣]..

ويُصوِّر رسول الإسلام موقفه من الأنبياء قبله، وأنه ليس إلا اللَّبنة الأخيرة، فى هذا الصَرح الكبير، فيقول «مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وُضعت هذه اللَّبنة؟ فأنا تلك اللَّبنة وأنا خاتم النبيين»(١).

٣- ومعناه الإيمان بمُثل عُليا إنسانية واقعية، وقدوات بشرية ممتازة، استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق، وصوالح الأعمال، وفضائل النفوس حقائق واقعية، وشخوصاً مرئية للناس، لا مجرد أفكار فى بعض الرؤوس، أو أمانى فى بعض النفوس، أو نظريات فى الكتب والقراطيس، وجمهور الناس ليسوا فلاسفة يؤمنون بالمجردات، وإنما يؤمنون ويتأثرون وينفعلون بما يشاهدون وما يحسون، ولهذا جعل الله الرسل إلى الناس بشراً مثلهم، لا ملائكة من غير جنسهم، لأن الإنسان لا يأنس إلا لمثله، ولا يقتدى إلا بمثله،

---

(١) متفق عليه.

ولا تقوم عليه الحجة إلا به . وقد استبعد المشركون أن يكون الرسل بشراً وقالوا منذ عهد نوح : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً** ﴾ [المؤمنون : ٢٤] وقالوا فى عهد محمد : ﴿ **أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولا** ﴾ [الإسراء : ٩٤]؟ فرد الله عليهم بقوله : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً** ﴾ [الإسراء : ٩٥]

فالأنبياء ليسوا فى نظر القرآن آلهة ، ولا أنصاف آلهة ، ولا أبناء آلهة ، إنهم بشرا مثلنا مَنَّ الله عليهم بنعمة الوحى ، ليبلغوا رسالة الله للناس : ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [إبراهيم : ١١]

● **الإيمان بالآخرة :**

أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان ؟ أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شىء بعد هذا ؟ أو كما عبَّر القرآن عن قوم : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ..

إذن فما سر هذا الشعور الخفى ، والوجدان الكامن الذى يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن بأنه لم يُخلق لمجرد هذه الحياة ، ولتلك المدة القصيرة ؟ ما سر هذا الشعور بأن الإنسان فى هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة ؟

هذا الشعور الذى رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا ـ استجابة له ـ جثث الموتى وبنوا الأهرام ، والذى ظهرت آثاره فى أُمم شتَّى بأساليب مختلفة .

يقول الشيخ محمد عبده : « اتفقت كلمة البشر مُوَّحدين ووثنيين ، نبيين وفلاسفة ـ إلا قليلا لا يُقام لهم وزن ـ على أن لنفس الإنسان بقاءً تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لا تموت موت فناء ـ أى زوال مطلق ـ وإنما الموت المحتوم هو ضرب من

البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون فيه ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ فى أحياء البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال : إنها إذا فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها . ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الجسام المرئية .

هذا الشعور العام بوجود حياة بعد هذه الحياة والمنبعث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يُعَد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع . فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا ـ وإن شذ أُناس منه أنكروا ذلك أو شَكُّوا فيه ـ كذلك قد ألهمت العقول وشعوت النفوس ، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد ، كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حياً باقياً فى طور آخر ، وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يزاحم البديهة فى الجلاء ، يُشعر كل نفس أنها خُلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شيقة إلى لذات غير محدودة، ولا واقفة عند غاية ، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات .

ثم كيف يسيغ العقل أن ينفضَّ سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وقتل فيها من قتل . وبغى فيها من بغى ، وتجبر من تجبر ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه ، بل تستر و اختفى فأفلت ونجا .. أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت ؟

وفى جانب الآخر : كم أحسن قوم ، وضحوا وجاهدوا ولم ينالوا جزاء ما قدموا ، إما لأنهم كانوا جنوداً مجهولين ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة

ما عملوا من خير . وكم من قوم دعوا إلى الحق ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون فى طريقهم ، وأوذوا وعُذبوا و اضطُهدوا وشُرِّدوا ، وسقطوا صرعى فى سبيله . وأعداؤهم الطغاة فى أمن وعافية بل فى ترف ونعيم .

ألا يسيغ العقل ـ الذى يؤمن بعدالة الإلَه الواحد ـ بل يطلب ، أن توجد دار أُخرى يُجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمُسىء بإساءته ؟ هذا ما تنطق به الحكمة السارية فى كل ذرَّة فى السموات والأرض : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الدخان : ٣٨ – ٤٠] ، ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٧ – ٢٨] .

﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾

[الجاثية : ٢١–٢٢]

﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى** ﴾ [النجم : ٣١] .

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ [الروم : ٢٧] . .

بهذا الخلق الأول يستدل القرآن على إمكان البعث ، كما يستدل عليه بمظاهر قدرة الله فى عالم النبات : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ**

فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧]

ويستدل القرآن على إمكان البعث بخلق الأجرام العظيمة فى هذا الكون من السموات والأرض ، وهى - لمن تأمل - أكبر من خلق الناس وأعظم : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] .. ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف : ٣٣]

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق ، والميزان العادل : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] .. ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .. وهناك ينقسم العباد إلى شقى وسعيد : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٨] ..

والجنة دار هيأها الله لمثوبة الصالحين من عباده ، وأعد فيها من النعيم الروحى

والمادى ما عبر الله عنه فى الحديث القدسى :« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» واقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾

[السجدة:١٧] ..

إن الحياة فى هذه الدار هى الحياة الحقة ، وإن نعيمها هو النعيم الذى يقصر الخيال البشرى عن وصفه . إنه ليس نعيماً روحياً خالصاً ، ولا نعيماً مادياً صرفاً ، وإنما هو مزيج من الأمرين ، ذلك أن الإنسان نفسه ليس روحاً مجردة ، ولا مادة بحتاً ، إنما هو مركب منهما ، والإنسان فى الآخرة امتداد لإنسان الدنيا وإن اختلف الكيف والتفصيل ، فلا عجب أن يكون فى الجنة فاكهة ولحم وطيور وحور عين ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [التوبة:٧٢] ..

والنار دار أعدها الله لعقوبة الفُجَّار من الخلق . وهى تجمع العقوبتين المادية والروحية معاً .. فهناك العذاب الحسى ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ** ﴾ [النساء:٥٦] .. وهناك العذاب النفسى الذى يتمثل فى الهوان والخزى كقوله تعالى لهم : ﴿ **اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ** ﴾

[المؤمنون:١٠٨]..

* * *

مزايا العقيدة الإسلامية

١ - عقيدة واضحة :

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد . .

فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، تتلخص فى أن وراء هذا العالَم البديع المنسق المحكم رباً واحداً خلقه ونظمه . وقدر كل شىء فيه تقديراً، وهذا الإلَه أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد ﴿**بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**﴾ [البقرة:١٦] . .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، ويريد أن يُرجع الأشياء دوماً إلى سبب واحد .

فليس فى عقيدة التوحيد ما فى عقائد التثليث أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذى يعتمد دائماً على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين « اعتقد وأنت أعمى » .

٢ـ عقيدة الفطرة :

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها ، بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم:٣٠] . .

وصريح الحديث النبوى : « كل مولود يُولَدُ على الفطرة ـ أى على الإسلام ـ وإنما أبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه »(١) . فدل على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين .

---

(١) متفق عليه .

أما الأديان الأُخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهى من تلقين الآباء .

٣- عقيدة ثابتة :

وهى عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العملية ، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يُضيف إليها أو يُحوِّر فيها ، وكل إضافة أو تحوير مردودة على صاحبها ، والنبى ﷺ يقول : « مَن أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد »(١) أى مردود عليه .

والقرآن يقول مستنكراً : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى : ٢١] . . وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التى دُسَّت فى بعض كتب المسلمين أو أُشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه .

٤ ـ عقيدة مبرهنة :

وهى عقيدة « مبرهنة » لا تكتفى من تقدير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم ، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأُخرى : « اعتقد وأنت أعمى » أو « آمن ثم اعلم » أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » أو « الجهالة أم التقوى » بل يقول كتابها بصراحة : ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة : ١١١] و[النمل : ٦٤] ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفيلسوف المسيحى « أوغسطين » : « أؤمن بهذا لأنه محال » ! بل يقول علمائها : إن إيمان المقلِّد لا يُقبل .

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليها أساساً للاعتقاد بل تتبع خطاياه بالحجج الدامغة ، والبرهان الناصع ، والتعليل الواضح ، الذى يملك أزمة العقول ، ويأخذ الطريق إلى القلوب ، ويقول علماؤها : إن العقل أساس النقل . . والنقل الصحيح لا يُخالِف العقل الصريح .

---

(١) متفق عليه .

فنرى القرآن فى قضية الألوهية يُقيم الأدلة من الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله .

وفى قضية البعث يُدلِّل على إمكانه بخلق الإنسان أوَّل مرة ، وخلق السموات والأرض ، وإحياء الأرض بعد موتها ، يُدلِّل على حكمته بالعدالة الإلَهية فى إثابة المحسن ، وعقوبة المسىء : ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى** ﴾ [النجم : ٣١] ..

٥ ـ عقيدة وسط :

وهى عقيدة وَسَط لا تجد فيها إفراطاً ولا تفريطاً ..

هى وَسَط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم ، وبين الذين يُثبتون للعالَم أكثر من إلَه ، بل يُحلِّون روح الإلَه فى الملوك الحكام بل فى بعض الحيوانات والنبات مثل الأبقار والأشجار ، فقد رفضت الإنكار الملحد ، كما رفضت التعديد الجاهل ، والإشراك الغافل ، وأثبتت للعالَم إلهاً واحداً ، لا إلَهَ إلاَّ هو : ﴿ **قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٨٤-٨٩] ..

وهى عقيدة وَسَط فى صفات الإلَه ..

فليس فيها الغلو فى التجريد الذى جعل صفات الإلَه مجرد سُلوب لا تعطى معنى ، ولا تُوحى بخوف أو رجاء ـ كما فعلت الفلسفة اليونانية ـ فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا .. من غير أن تقول ما صفات هذا الإلَه الإيجابية ؟ وما أثرها فى هذا العالَم ؟

ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية .. جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس ، ووصفته بالنوم والتعب

والراحة ، والتحيز والمحاباة والقسوة .. و.. وجعلته يلتقى ببعض الأنبياء فيصارعه فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بقلب جديد !

ولكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيه الله ـ إجمالاً ـ عن مشابهة مخلوقاته ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى:١١] .. ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:٤] .. ومع هذا تصفه ـ تفصيلاً ـ بصفات إيجابية فعَّالة ﴿ **اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة:٢٥٥] .. ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [البروج:١٢-١٦]

وهى وَسَط بين التسليم الأبله الذى يأخذ عقائد الآباء بالوراثة ، كما يرث عنهم العقارات والأملاك : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف:٢٢] .. وبين الذين يريدون أن يعرفوا كُنه كل شىء حتى الأُلوهية وهم بعد لم يعرفوا كُنه أنفسهم التى بين جنوبهم ، ولا ماهية حياتهم وموتهم ، ولا كُنه شىء من القُوى الكونية المحيطة بهم ، فكيف يطمع العقل بعد ذلك فى معرفة كُنه الأُلوهية ؟ وهل يعرف النسبى كُنه المطلق ؟ ويعرف المحدود حقيقة غير المحدود ؟ !

وهى مع هذا تفتح الباب للنظر فى الكون والتفكير فيه، ويقول الرسول ﷺ : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » (١) ويقول القرآن : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [يونس:١٠١] . ﴿ **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي**

---

(١) الحديث رُوىَ بألفاظ متعددة ، من طرق مختلفة ، بأسانيد كلها ضعيفة ، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة ، والمعنى صحيح كما قال السخاوى فى المقاصد الحسنة .

أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] .. ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥] .. ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠ - ٢١] ..

وهى وسط فى علاقتها بالعقائد الأخرى ، فلا تقبل الذوبان فى غيرها ، بل تدعو فى قوة إلى الثبات عليها والاستمساك بها : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩] .. ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣] .. ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية : ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى:١٥] .. بل يتسع صدرها لما يخالفها : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] .. ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١]

تهيب بأصحابها أن يدعوا إليها : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت : ٣٣] ولكنها لا ترضى بإكراه أحد على اعتناقها : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] ..

لا تقبل التهاون فى موادة من يحاربونها ويضعون العراقيل فى سبيلها وإن كانوا من ذوى القرابة القريبة ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢] ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ولا يتعدى على أهلها ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة :٨] ..

وهى وَسَط بين الذين يتساهلون فى إثبات العقائد فيقبلون الظنون والشكوك والأوهام ، وهذا معين لا ينضب لقبول الخرافات والأساطير ، وبين الذين لا يقبلون فى العقيدة أى خطرة تمر بالذهن ثم تختفى ، أى هاجس يهجس فى النفس ثم

obeikandi.com

يزول ، لقد رفضت عقيدة الإسلام الظن فى أُصول العقيدة ـ فضلاً عن الشك أو الوهم ـ قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَناً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً** ﴾ [يونس:٣٦] .. ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ** ﴾ [النجم:٢٣] .. ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً** ﴾ [النجم:٢٨]

ومع هذا تسامحت فى الخواطر التى لا يسلم منها العقل البشرى ، بل اعتبرتها أحياناً دليل يقظة العقل ، ومظنة للطمأنينة وعلم اليقين . قال بعض الصحابة يا رسول الله ؛ إنا نجد فى أ نفسنا ما لو أن نصير حُمماً ـ فحماً محترقاً ـ أهون من أن نتكلم به ـ يعنون خطرات ترد عليهم فى قضايا الأُلوهية ـ فقال النبى فى صراحة وقوة : « أو قد وجدتموه ؟ ذاك صريح الإيمان » (١) .

ويروى الحاكم أن ابن عباس وابن عمر التقيا ، فقال ابن عباس : أىُّ آية فى كتاب الله أرجى ؟ فقال ابن عمر : قول الله : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ [البقرة:٢٦٠] .. فرضى منه بقوله « بَلَى » فهذا لما يعترض فى الصدر مما يوسوس به الشيطان .

إنها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها إلهام المَلَك فى قلب المؤمن ، وإنها طيف يلوح ثم يختفى ، وهاجس يهجس ثم يزول بإسلام الوجه لله . والاعتصام بهداه ، وتلاوة آياته : ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [آل عمران:١٠١] .. ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [لقمان:٢٢] ..

وهى وَسَط فى أمر النبوَّة ، فلم ترفع الأنبياء إلى مقام الأُلوهيه ، فيتجه الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله ، كما اعتقد أهل المِلَل فى أنبيائهم ، ولم تنزل

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

بهم إلى مستوى السفلة من الناس ، فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات ، وفعل المنكرات من شرب للمسكرات ، واتباع للشهوات ـ بل قتل للنفوس فى سبيلها ـ كما رأينا في وصف أسفار العهد القديم للأنبياء .

وإنما الأنبياء فى عقيدة الإسلام بشر أصفياء ، علم الله طيب معادنهم ، وحسن استعدادهم ، فأنزل وحيه عليهم : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وجعلهم أسوة لأتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنيء الأعمال ، حتى لا يتوجه إليهم وعيد الله ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة : ٤٤] وحتى يكونوا أهلا لعهد الله ﴿ **قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وهى عقيدة وسط فى قضية الإرادة الإنسانية ، قضية الجبر والاختيار ، تلك القضية التى حار العقل البشرى فى الوصول إلى رأى فيها ، وتنازع فيها الفلاسفة وعلماء الأخلاق والنفس والتربية وغيرهم منذ تفلسف الإنسان إلى اليوم .

عقيدة الإسلام فى هذا هى العقيدة الوسط المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد ، فالإنسان فى دائرة أعماله الاختيارية ـ حر مسئول عن نفسه وعمله ، له أن يفعل وأن يترك ، أن يُقدم وأن يُحجم ـ كما تشهد بذلك بديهته وإحساسه ، وكما تشهد نصوص القرآن ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف : ٢٩] ﴿ **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ [المزمل : ١٩] ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** ﴾ [المدثر : ٣٧] ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [الجاثية : ١٥] ﴿ **لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] إلى غير ذلك من آيات تبلغ المئات ، كلها تقرر حرية الإنسان ومسئوليته عن عمله .

ولم يكتف القرآن بهذا التقرير الإيجابي ، ولكنه حمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر ، محتجين بمشيئة الله فقال : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**

﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]..

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧]..

ولكن الإنسان ـ كما هو الواقع ـ ليس مطلق الإرادة، كامل الاختيار، بحيث يفعل كل ما يشاء، وينفذ كل ما يريد، ولو فعل لكان إلهاً.

ولن يستطيع أحد ـ مهما بلغ من الانتصار للحرية الإنسانية ـ أن ينكر هذه المحدودية لإرادة البشر، فقد حكموا فيه الوراثة، أو البيئة أو كليهما. وقال بعضهم: «الإنسان حر في ميدان من القيود»، حتى أولئك الماديون الجدليون قيدوه بوسائل الإنتاج، وظواهر الاقتصاد، فنزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من «الجبرية» حين جعله عبداً خاضعاً لمظاهر المادة. لا سيداً مهيمنا عليها كما يقرر السلام.

هذه الحقيقة المتفق عليها قررها الإسلام في أشرف صورة وأكرم للإنسان، فهو حر مختار في دائرة ما رسم الله للوجود من سنن، يُجريها بعلمه وحكمته ومشيئته على أجزاء الكون كله. ومنها هذا الإنسان فهو حر لأن الله أراد له الحرية. أو هو يشاء، لأن الله هو الذي قدَّر له أن يشاء: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]

فالقرآن بجانب ما يقرره من حرية الإرادة الإنسانية ـ يذكر الجانب الآخر، جانب الإرادة الإلهية النافذة، والقدرة الإلهية القاهرة: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء: ٣٠] ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨] ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨].

والقرآن قد أدى للحقيقة حقها من كل جوانبها ، فلم يغمط الألوهية حقها، كما لم يعد بالإنسان قدره . وكان بشموله واتساع نظرته كتاب العالم كله وكتاب الزمن كله.

يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة :

« إن القرآن كتاب مُوَجَّه للإنسانية كلها ، وهو ينطبق على جميع طوائف هذه الإنسانية ويُعبِّر عن ذلك تماماً ، فالمتدين الورع ، الذى نفذ فى كيانه الشعور العميق أنه مخلوق فيريد أن يخرج عن حَوله وقوته وينسب الخير لله والشر لنفسه ، أو يرى أن ينسب كل شيء لله نسبة ميتاقيزيقية لا مادية يجد فى القرآن ما يناسب ذلك . من مثل : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء:٧٩] . . ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [النساء:٧٨] .

والمتدين المعتز بفعل الخير، المعترف بمسئوليته فى فعله للشر ، يجد ما يُرضي شعوره بذاته ، ويتفق مع العدالة التى يتصورها . من مثل : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت:٤٦ ،الجاثية :١٥] . . . . ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة:٧-٨] . .

المذنب المُسرف على نفسه يجد إذا تاب وأناب ما يُبَدِّد يأسه ويطمئنه على مصيره . من مثل : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر:٥٣] . .

والناظر نظرة فلسفية ميتاقيزيقية عميقة يجد ما يلائم نظرته .

والخاسر الذى يزعم أنه هالك قد قضى عليه بالشر والشقاء يجد ما يقرر وصف حاله .

فالقرآن ليس مُوَجَّهاً للسذج ولا للمصرين على النظر إلى شيء واحد وعلى النظر من جانب واحد ، بل هو مُوَجَّه إلى الإنسانية المتطورة ، السائر فى تطور نحو الكمال والفكر ونحو النظرة الموَّحدة[١] .

---

(١) من تعقيبات الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة على كتاب « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » لديبور ص٦٩ .